المحاضرة 07

تابع التيارات الأنثروبولوجية

ثالثا: النظرية الوظيفية

الاتجاه الوظيفي هو اتجاه قديم حديث في آن واحد، حاز وشغل حيزا معتبرا من اهتمام علماء الأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع، حيث ظهر في أعمال المؤسسين الأوائل، ثم تطور وشغل مساحات كبيرة من خلال اعتماده كنموذج نظري في الدراسات الأنثروبولوجية والسوسيولوجية سيما ما تعلق بعمليات التحليل، ومرتكزات الاتجاه الوظيفي نجدها مبثوثة في ثنايا مؤلفات الأنثروبولوجيين الكبار من أمثال برونيسلاف مالينوفسكي، و راد كليف بروان، ورالف لنتون... كما نجدها كذلك لدى ايميل دوركايم، وماكس فيبر، وباريتو، والبنائية الوظيفية لدى تالكوت بارسونز، وروبرت ميرتون...

وفي فترات لاحقة لا ينفك الباحثون سواء في علم الاجتماع أو الأنثروبولوجيا من الاعتماد على الوظيفية كنموذج للتحليل والتفسير، وأقر الكثير من علماء الاجتماع بالقول أن دراسة علم الاجتماع، تتجه اتجاها بنائيا وظيفيا بالضرورة، ويرى محمد عاطف غيث أن الاتجاه الوظيفي لا يمثل مدرسة محددة تحديدا واضحا في العلوم الاجتماعية، بل انه يتشعب تشعبات كثيرة تجمعها خصائص عامة[1]

ان بواكير الاتجاه الوظيفي في الفكر الإسلامي يمكننا أن نتلمس شواهده في إحدى الأعمال البارزة لأحد العلماء والمفكرين من الحضارة العربية الإسلامية وتحديدا لدى واضع ومؤسس علم الاجتماع الأول، أو كما سمي في تلك الفترة " علم العمران البشري، انه عبد الرحمن بن خلدون، ففي إحدى فصول المقدمة وتحديدا في: "فصل أن الدولة لها أعمار طبيعية كما للأشخاص" يشبه ابن خلدون مسار عمر الدولة بمسار عمر الإنسان، هذا المسار محدد بمراحل النشأة إلى القوة ثم إلى الضعف والموت، فيذكر قائلا:" اعلم أن العمر الطبيعي للأشخاص على ما زعم الأطباء والمنجمون مائة وعشرون سنة وهي سنو القمر الكبرى عند المنجمين ويختلف العمر في كل جيل بحسب القرانات... وأما أعمار الدول أيضا وان كانت تختلف بحسب القرانات إلا أن الدولة في الغالب لا تعدو أعمار ثلاثة أجيال... فهذا العمر للدولة بمثابة عمر الشخص من التزيد إلى سن الوقوف ثم إلى سن الرجوع."[2]

وإذا كانت الأنتربولوجيا في بداية القرن العشرين قد مرت باتجاهين مختلفين بسبب القطيعة المعرفية التي تعرضت لها ، فكان الاتجاه الأول هو الاتجاه التطوري الذي ركز أصحابه على الدراسة التتبعية للمجتمعات البشرية عبر الزمان، أما الاتجاه الآخر فهو الاتجاه الانتشاري والذي قام على فكرة انتشار عادات وأنظمة اجتماعية وثقافية لدى الإنسان عبر الزمان والمكان.

---

[1] – مُحَمَّد عاطف غيث: تاريخ النظرية في علم الاجتماع، واتجاهاتها المعاصرة، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1987.

[2] – عبد الرحمن بن مُحَمَّد بن خلدون: مقدمة ابن خلدون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان،"د.ت" .

ثم جاءت مرحلة التفسير الوظيفي، حيث أبدى العديد من المفكرين والعلماء انشغالهم بمشكلة كيفية الحفاظ على النظام الاجتماعي، وطرح العديد من السوسيولوجيون و الأنثروبولوجيون تساؤلات حول الأسباب أو العوامل التي تؤدي إلى تماسك المجتمع؟ وما هي الأسباب التي تجعله متغيرا؟ أو تؤدي إلى حدوث تغير معين في بنائه؟

وكان مالينوفسكي قد حقق رسوخا كبيرا في ساحة البحث والفكر الأنثروبولوجي خصوصا لما أصدر كتابه الأول عام 1922 والى غاية وفاته عام 1942 و كان كتابه بعنوان: "**مغامرو غرب المحيط الهادي، Argonautes du Pacifique occidental"**، وقد كان مالينوفسكي ممثلا للوظيفية بجدارة كبيرة في جامعة لندن وكان من أبرز طلابه النجباء الذين خلفهم ورثة له في المجال الأنثروبولوجي نجد ريموند فيرث Raymond Firth .

وعمل مالينوفسكي في إطار الاتجاه الوظيفي إلى عزل مختلف العناصر الثقافية، إما من أجل مقارنتها، أو لتتبع انتشارها، لقد ألح وان لم يكن هو أول من فعل ذلك، على ضرورة دراسة كيفية " اشتغال المجتمع" في لحظة معينة من تاريخه، باعتباره " نظاما" كلاً عضويا، كل شيء في داخله له دور يؤديه، والكل مرتبط بالكل، وبهذا تحول الانتباه من العناصر بذاتها إلى العلاقات القائمة في ما بينها، وتم الانتقال من النظرة الأرسطية للأمور إلى النظرة الغاليلية، كما يعتقد مالينوفسكي أنه ليس على الاثنولوجي الوظيفي أن يسأل عن الماضي أو عن توزع مختلف خصائص الثقافة، إنما عليه فقط السؤال عن الوظيفة التي تؤديها هذه الخصائص في لحظة إجراء المراقبة وعن الطريقة التي ترتبط بها في ما بينها. [3]

وكانا هربرت سبنسر وايميل دوركايم قد قاما من خلال ما طرحاه من رؤى وأفكار في هذا السياق، إلى لفت انتباه الباحثين في علم الاجتماع والأنثروبولوجيا إلى ضرورة الاهتمام بالتحليل الوظيفي، وكان سبنسر قد شبه المجتمع بالكائن الحي من ناحية البناء Structure والوظيفة Fonction فالقوانين التي تسري على نمو الكائن الحي، تشبهها القوانين التي تتحكم في نمو وتطور المجتمع، وكذلك الأمر بالنسبة إلى توزيع الأدوار وتقسيم العمل داخل المجتمع، شأن الوظائف وما تؤديه من أدوار في إطار البناء العضوي الكلي.

ومن خلال المماثلة Analogie شاع استخدام مصطلحي البناء والوظيفة في المجال البحثي الاجتماعي، وكان ايميل دوركايم قد حرص على الاستفادة منها وغيرها من مصطلحات المماثلة مثل المورفولوجيا، والفيسيولوجيا والفيزياء الاجتماعية.

والى جانب كتابه القيم حول قواعد المنهج في علم الاجتماع، نجد دوركايم قد نال شهرة علمية أكبر من خلال كتابه :" تقسيم العمل الاجتماعي"" Division du Travail " ففي كتابه هذا يورد دوركايم مجموعة من المفاهيم الدالة على تبنيه للاتجاه الوظيفي، كإبرازه لمدلول :" الوظيفة"،" التضامن الاجتماعي"،" التضامن الآلي"،" القيمة الخلقية". كما أبرز دوركايم كذلك وركز على البعد الوظيفي الاجتماعي للدين وممارسة الطقوس من خلال تحقيق التضامن وتجسيد الاتحاد بين الجماعات خصوصا في كتابه الشهير :" الأشكال الأولية للحياة الدينية"،" Les formes élémentaires de la vie religieuse "

---

[3]- بيار ايرني: اثنولوجيا التربية، ترجمة عدنان الأمين، معهد الإنماء العربي، بيروت، 1992.

أما باريتو فكان قد استخدم مصطلح المنفعة بدلا من الوظيفة، وكان متأثرا بالعلوم الميكانيكية التي من خلالها استطاع توليد وابتكار نموذج صور من خلاله المجتمع على أنه نسق متوازي، يتألف من أجزاء تقوم على الاعتماد المتبادل فيما بينها.

وفي إطار الاتجاه الوظيفي يذكر روبرت لوي أن من أكبر أنصار النزعة الوظيفية، نجد فرانس بواس، وإذا ظهرت النزعة الوظيفية بشكل مختلف وبسيط عند أصحاب الاتجاه الاثنولوجي القديم، فإنها تظهر في شكلها النهائي التكاملي عند الاثنولوجيين المحدثين من أمثال: روبرت لوي"،" روث بندكت"،" ماجريت ميد" وعلى رأسهم الأستاذ فرانس بواس.

وكان رائد الوظيفية البنائية "راد كليف براون" قد أكد أن الأنثربولوجيا الاجتماعية تهدف شأنها شأن العلوم الطبيعية والبيولوجية إلى التوصل إلى القوانين الاجتماعية التي تحكم فئة أو صنف من المجتمعات التي تنتمي إلى نمط معين وهذا من خلال الاعتماد على المنهج المقارن.

والى جانب دوركايم يمكننا القول أن مالينوفسكي B.Malinowask 1884-1942 من أبرز رواد الأنثروبولوجيا وهو علم من أعلام الاتجاه الوظيفي، كان واسع الاطلاع، وباحث حقلي بامتياز.

رابعا :النظرية البنيوية

وإذا أردنا البحث في أصل أو مصدر التسمية يمكننا القول أن لفظة "بنيوية" هي تعريب للكلمة الفرنسية"Structuralisme" ذات الأصل اللاتيني الذي يعود للفعل "struere"، ونجد لفظة "structure" في اللغة الفرنسية تقابلها لفظة" بنية"، و"struere" اللاتينية تعني بنى أو نسق حسب طبقات.[4]

وكانت البنائية كمنهج ونظرية قد ارتبطت بالفكر الفرنسي المعاصر، وقد حازت نصيبا وافرا منه ولفترة زمنية طويلة في الأوساط العلمية والأكاديمية ليس في فرنسا لوحدها وإنما امتدت إلى أرجاء أوربا وأمريكا، وظلت البنيوية شائعة الاستخدام ليس في الكتابات العلمية والأكاديمية فحسب، بل حتى في الحديث العادي، بفهم واستيعاب وتوظيف يختلف من مجال فكري وتخصص علمي إلى آخر. فكان مصطلح «بنيوية" أو "بنائية""Structuralisme" قد استخدم في الأنثربولوجيا، الفلسفة، علم النفس، الاقتصاد، السياسة، علم الاجتماع، والأدب وتحديدا النقد الأدبي، إضافة إلى استخدامه في مجال السينما والفن وغيرها من الجوانب الأخرى، وبالتالي ساعدت البنيوية في التخفيف من حدة الحواجز الفاصلة بين هذه الفروع العلمية وعملت على تجاوزها.

وإذا ما أردنا البحث في المستندات العلمية التي تغذت منها البنيوية في توليد معالمها وإرساء ركائزها نجد أنها مستمدة من فلسفات اجتماعية وأصول علمية مختلفة كالتحليل النفسي الذي جاء به سغموند فرويد، وماركسية كارل ماركس، واللسانيات التي قعدها وطورها العالم اللغوي" دوسوسير" سيما وأن هذه الفروع العلمية نجدها من معشوقات أبو الأنثربولوجيا البنيوية "كلود ليفي ستروس" كما يذكرها هو بنفسه، ويضيف إليها تخصص الجيولوجيا.

---

4 - André clerambard ; Structuralisme; in Dictionnaire des grands Philosophies; Pruvat-Toulose;1973.

وكلود ليفي ستروس الذي ارتبط اسمه بالبنيوية وارتبطت هذه الأخيرة باسمه، هو فيلسوف وأنثروبولوجي فرنسي من مواليد عام 1908، اهتم بدراسة الأسطورة، القرابة والعلاقات العائلية، أنظمة الزواج... وكانت أغلب أبحاثه الميدانية قد أجراها في البرازيل خصوصا خلال فترة الحرب العالمية الثانية حيث غادر فرنسا، كان قد مارس مهنة التدريس في جامعة Sao Paulo بالبرازيل، كما درس بجامعات نيويورك، ثم باريس خصوصا كولي دي فرانس Collège de France